# علي أحمد باكثير

## رائد قضية فلسطين في المسرح العربي

وصل علي أحمد باكثير إلى مصر في غضون سنة ١٩٣٤م، وهو يحلم بأن يكون شاعرا كبيرا، لكن عدل عن قراره واتجه إلى الرواية والمسرحية، وسطع نجمه في هذين الفنين، وكان الوحيد بين أبناء جيله ومعاصريه الذي تميز بغزارة الإنتاج وتنوعه. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م كانت الأجواء السياسية في العالم العربي والإسلامي محتقنة بسبب سيطرة الاستعمار، وكانت ملامح التآمر الاستعماري الدولي على فلسطين بدأت تلوح في الأفق بعد القمع الوحشي البريطاني للثورة الفلسطينية التي اندلعت سنة ١٩٣٦م، ومساعدة اليهود على إنشاء عصاباتهم الإرهابية المسلحة التي بدأت تفتك بالفلسطينيين والإنجليز معا، ثم كان المقترح البريطاني سنة ١٩٣٧/ بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية (أوصت به لجنه ملكية برئاسة اللورد بيل Peel) قد زاد هذه الثورة حدة حيث ظلت مشتعلة حتى سنة ١٩٣٩م عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية.

د. محمد أبو بكر حميد

لم يهتم باكثير بمجريات أحداث الحرب العالمية الثانية بقدر ما اهتم بانعكاس هذه الأحداث على قضية فلسطين والصراع الدائر فيها بين الفلسطينيين من جهة والإنجليز واليهود من جهة أخرى، وكانت سنة ١٩٣٩م، بالنسبة له ليست بداية الحرب العالمية الثانية فحسب، بل بداية تنفيذ التآمر الدولي على فلسطين.

وكان باكثير على وعي بهذه الأحداث من خلال متابعته الدقيقة لها، وقد جعله هذا يعيش أزمة نفسية ويشعر بحزن عميق خوفاً من كارثة يتوقع حلولها بفلسطين الأمر الذي جعله يسخر قلمه لهذه القضية ابتداءً من سنة ١٩٤٤م ليكتب عن فلسطين خمس مسرحيات طويلة وحوالي ٥٠ مسرحية قصيرة يقول لنا في معرض حديثه عن الدوافع وراء كتابته مسرحيته الأولى عن فلسطين (**شيلوك الجديد**) التي توقع فيها قيام دولة إسرائيل، يقول:

«كان ذلك في غضون سنة ١٩٩٤م، قبل نكبة فلسطين الكبرى بثلاثة أعوام، كانت القضية تشغلني وكنت أتابعها باهتمام سواء فيما نشر عنها في الصحف أو ما يوضع عنها من الكتب. وذات يوم قرأت فيما قرأت أن الزعيم الصهيوني جابو تنسكي خطب مرة في مجلس العموم البريطاني فضرب المنضدة بيده

**■ كان باكثير الأديب العربي الوحيد الذي حمل عبء متابعة مأساة فلسطين قبل حدوثها بسنوات، وصور تطوراتها من خلال كفاح فني طويل استغرق حياته كلها.**

وهو يقول: «أعطونا رطل اللحم، لن ننزل أبدا عن رطل اللحم»، مشيراً بذلك إلى الوطن القومي الذي تضمنه وعد بلفور، فقلت في نفسي: قد وجدت الضالة التي كنت أنشدها، هذه الكلمة حجة على الصهيونية لا لها، وسأتخذها الفكرة الأساسية لمسرحيتي، واستحضرت في ذهني رواية تاجرالبندقية لشكسبير، ثم أعدت قراءتها فلمحت الخطوط الأولى للموضوع الملائم للفكرة، ولم ألبث أن وضعت تصميم المسرحية، ثم أخذت في كتابتها بسهولة فائقة حتى أتممتها»(كتابه فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، ص٢٢).

والفكرة التي عبر عنها (باكثير) في هذه المسرحية: هي أنه لا يمكن أن تقوم لليهود دولة في فلسطين العربية دون أن يسيل الدم من الشرق العربي كله. وذلك مثله مثل رطل اللحم الذي اشترطه اليهودي المرابي شيلوك – في مسرحية شكسبير تاجر البندقية – على التاجر أنطونيو، فلا يمكن لشيلوك أن يقطع رطل اللحم من جسم أنطونيو دون أن يسيل له دم ويموت، وكما أن القوانين الإنسانية تمنع شيلوك من تحقيق هذا الشرط رغم موافقة أنطونيو عليه، وتوقيعه صك العقد، فإنه أيضا يستحيل تنفيذ وعد بلفور في مسرحية (باكثير) لسببين أولهما: أنه يخالف القوانين الإنسانية، لأنه يقر إبادة شعب بأكمله لحساب أقلية إرهابية، وثانيهما أنه وعد أعطاه من لا يملك لمن لا يستحق. والخلاف بين مسرحية شكسبير ومسرحية (باكثير) أن أنطونيو عند شكسبير – كان يملك أن يكتب الصك على نفسه، بينما لا يملك أحد أن يكتب مثل هذا الصك عن فلسطين!. والموضوع بهذا الشكل كما رأينا قد استعاره (باكثير) من شكسبير، واعتمد فيه على أوجه التشابه بين القضيتين بوجه عام وفي بعض التفصيلات حتى تنتهي مسرحية (باكثير) ببطلان دعاوى الصهاينة، كما بطلت دعاوى المرابي شيلوك في مسرحية شكسبير.

وقد تنبأ باكثير في هذه المسرحية بقيام دولة إسرائيل في فلسطين وخروج أهلها منها، كما اقترح أن الحل الوحيد أمام العرب هو فرض الحصار الاقتصادي على هذه الدولة حتى تموت.

وبعد هذا العمل الرائد كتب باكثير مسرحيته الطويلة الثانية (**شعب الله المختار**) التي كتبها سنة ١٩٥٦م، ومثلها فرقة المسرح الشعبي المصري من إخراج كرم مطاوع سنة ١٩٥٨م، وهي كوميديا من أربعة فصول يكشف فيها باكثير حقيقة شعب الله المختار.

ويحلل هذا المجتمع اللقيط، فالأحداث تدور داخل الفندق في تل أبيب، وشخصيات المسرحية من مختلف يهود العالم العربي والأجنبي، فهناك اليهودي المصري، واليمني، والأمريكي، والروسي، والإنجليزي، ومن خلال حياة هذه الشخصيات داخل الفندق نشهد صوراً من الحياة في قلب إسرائيل، ونكتشف الحياة المادية الداعرة التي يعيشها الإنسان هناك، في عالم تقطعت بينه الصلات، ويعيش في خواء روحي وقلق واضطراب. ويكتشف فيه اليهود الذين جاؤوا جريا وراء الأسطورة الصهيونية لخديعتهم، حتى إنهم ليؤثرون الانتداب البريطاني على الحكم الصهيوني، ونشهد صوراً من الانحلال الخلقي داخل المجتمع الإسرائيلي، حيث نرى الأم- صاحبة الفندق -تدفع ابنتها إلى مضاجعة الرجال، وابتزاز أموالهم. كما نشهد التفرقة العنصرية داخل هذا المجتمع حين يكتشف اليهودي الشرقي العربي أن لا مكان له بين يهود أوروبا، ثم يكون الصراع وتبادل التهم بين يهود الشرق والغرب، وكيف أن يهود الشرق حين يدافعون عن أنفسهم يعدون يهود أوروبا ليسوا من سلالة «شعب الله المختار».

أما المسرحية الطويلة الثالثة فهي (**إله إسرائيل**) كتبها سنة ١٩٥٩م، يقول باكثير عن هذه المسرحية في مقدمتها: إنه استمد حقائقها من الكتب المقدسة «التوراة»، و«الإنجيل»، و«القرآن»، ومن «التلمود»، ومن مصادر أخرى كثيرة لليهود أنفسهم، أو لغيرهم من المؤرخين في مختلف العصور. وقد ظلت فكرة هذه المسرحية مختمرة في ذهنه أكثر من خمسة عشر عاما.

وعلى هذا فقد استوعبت مسرحيته المشكلة اليهودية منذ أقدم عصورها. وتنقسم المسرحية إلى ثلاثة أجزاء تكاد تكون متكاملة، لأن كل جزء تمثل حقبة من حقب العصيان اليهودي عبر التاريخ، فالأول عنوانه «**الخروج**» تجري أحداثها في عهد «موسى» عليه السلام – في تصوير فني شيق- كيف يتحالف اليهودمع الشيطان؟ وكيف عصوا «موسى» عليه السلام؟، كما أبرز ظاهرة حب اليهود الطاغي للذهب والأموال، فنرى اليهوديات يحتلن على المصريات لسرقة حليهن، ثم إن هذا المسلك الدنيء دفعهم لصنع عجل من الذهب يعبدونه من دون الله! وإذا كانت المسرحية الأولى تصور لنا العذاب الذي لقيه (موسى) عليه السلام مع اليهود، فإن الجزء الثاني «**ملكوت السماء**» يصور «يحيى» نبي الله يدعو بني إسرئيل» ليطهرهم، ويصور هيام مريم المجدلية به، ويبدع «باكثير» في رسم النفس الإنسانية، وتأرجحها بين الضعف والقوة، والرفض والقبول، والهداية والغواية. فما زالت المجدلية تغري «يحيى» متبعة تعليمات «إبليس».. لكن «يحيى» لا يستجيب، ثم نشهد الإرهاصات بظهور «المسيح». وحين يقتل «يحيى» تحمل سالومي رأسه في طبق. ويظهر المسيح بالفعل ويتصدى لإبليس، ويستمر الصراع في داخل النفوس وخارجها، حين نجد إبليس يزين للكهنة قتل المسيح، وحين أرادوا استخدام المجدلية كانت قد شربت من نور الله، وأشرقت بالإيمان، ولكن إبليس لا يعدم الحيلة فيتنكر لها في شكل «إله إسرائيل» ومع ذلك نجدها تتعرف عليه وتكشف أمره، وفي الأخير نشهد «يهوذا الأسخريوطي» شبيه المسيح يحاكم ويصلب ظنا أنه المسيح.

أما الجزء الثالث فبعنوان «**الحية**» وأحداثه تدور في العصر الحديث، وعن منشأ الحركة الصهيونية التي بدأ بانعقاد (مؤتمر بال) بسويسرا عام ١٨٩٧م، و«باكثير» يحدد رمز «الحية» هنا حين تظهر على جدار المسرح خريطة العالم وقد التفت حول أقطاره حية صفراء ضخمة، ويبدو رأسها متجهاً نحو فلسطين، على

وشك التهامها، ولعل «باكثير» ينبه في هذا إلى الخطر الصهيوني على العالم كله، وليس فلسطين وحدها، وقد تحققت نبوأة باكثير وخاصة ونحن نرى الصهيونية اليوم تقف خلف العديد من الأبواب الكبيرة في العالم، وتجلس القرفصاء تحت العديد من مقاعد الحكم فيه. ثم نعيش مع «باكثير» في هذه المسرحية تفصيلات الحوار بين الزعامات الصهيونية في ذلك المؤتمر، فنتعرف على الآراء التي طرحت فيه، وعلى علاقة الصهيونية بالماسونية. ثم يتابع «باكثير» بذكاء وحس سياسي يقظ خط العلاقة بين الصهيونية و «إبليس».

ومن خلال العديد من الصور والمفارقات يقدم لنا الكثير من الحقائق التي تؤكد أن الصهيونيين قد تفوقوا على الشياطين. وهذا ما يقوله إبليس في المسرحية لشياطينه، فيحس الشياطين بعجزهم، بل إننا نجد «إبليس» نفسه يخدع من تلاميذه الصهاينة، عندما يقابل بالنكران والجحود حين ينفون وجوده أصلاً. ويحس إبليس بالقهر وبأن الصهيونية قد استنفدت كل أبواب الشر، ولم يبق له شيء. فيفكر في التوبة إلى الله، ولكن كيف تقبل توبته وملايين الصهاينة يفسدون في كل بقاع الأرض؟ هنا يضعنا «باكثير» أمام حقيقة كبيرة تقول: إن بني إسرائيل هم بنو إبليس، وفي نهاية المسرحية نرى إبليس يعمل على تزويج الشياطين من اليهوديات، والعكس. حتى يرتفع الشياطين إلى مستوى اليهود وينخفض اليهود قليلاً عن مستواهم فيكون هو وحده لا مثيل له.

وعلى هذا تتحقق فكرة «باكثير» في المسرحية - وهي أن (إله إسرائيل) الحقيقي هو (إبليس)، وهم أيضاً (شعبه المختار). وأهم ما يميز المسرحية هو استخدام «باكثير» لرمز الشيطان وهو الرمز الذي

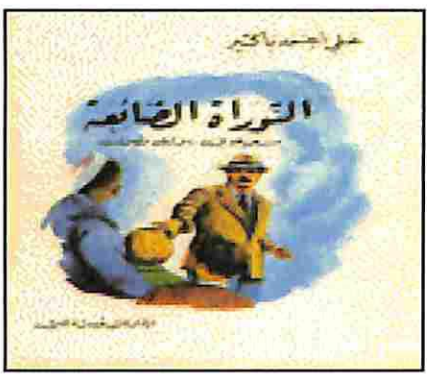


امتد عبر المسرحيات الثلاث للتأكيد على ارتباط الحركة الصهيونية منذ البداية بالشر وبالإغواء والعصيان، فالذي عذب «موسى» وقتل «يحيى» وحاول صلب المسيح (عليهم السلام) هو الذي أقام المذابح في فلسطين، وهو الذي يلتهم الأرض العربية قطعة بعد قطعة، على مرأى ومسمع من العرب والمسلمين والعالم.

ومن الناحية الفنية فإن توظيف «باكثير» للشيطان في هذه المسرحية يطرح رؤية جديدة تحفز على المقارنة بين هذا العمل والوسائل التي وظف فيها الشيطان في المسرح العربي والعالمي، ابتداء من شيطان «فاوست» عند (مارلووجوته) إلى شيطان محمد فريد أبو حديد في «عبد الشيطان»، وشيطان تيمور في «أشطر من إبليس» وشيطان باكثير نفسه في (فاوست) الجديد. وإذا كانت كل تلك المعالجات تبحث علاقة الشيطان بالإنسان عموماً فالجديد أن باكثير قد خصص الدائرة في مسرحية «إله إسرائيل» حين قصرها على علاقة اليهود بالشيطان، ثم قام بتحليل سلوك هذا الجنس البشري عبر تاريخه الطويل، حين انبثقت من روحه الصهيونية، فخرج من دائرة «الإنسانية» ليقف على دائرة الشيطانية».

وفي سنة ١٩٦٣م يكتب مسرحيته الطويلة الرابعة (لباس العفة) عندما دعا الحبيب بورقيبة إلى الصلح مع إسرائيل، وتخيل باكثير في هذه المسرحية زيارة بورقيبة لإسرائيل في كوميديا هزلية وهي نبوءة بزيارة السادات التي تمت بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة.

و(**التوراة الضائعة**) هي المسرحية الخامسة الطويلة التي ختم بها باكثير متابعته لقضية فلسطين وختم بها حياته، فقد كتبها سنة ١٩٦٨م في أعقاب هزيمة ١٩٦٧م، وظهور المقاومة الفلسطينية، وطبعت سنة ١٩٦٩م، بعد وفاته بشهر.

تسجل هذه المسرحية تطوراً فنياً في تقنية باكثير المسرحية باستخدامه بعض الوسائل الفنية الحديثة على مدى فصولها الثلاثة بين مشاهد واقعية تدور أحداثها في القدس، ومشاهد خيالية (مجال إبداع وسائل الإخراج الحديثة)، يلتقي في هذه المشاهد أبطال التاريخ مثل «صلاح الدين الأيوبي» و«ريتشارد قلب الأسد».. إذن ففي المسرحية عالم الواقع وعالم الخيال. ويحرك باكثير هذين العالمين في مسرحيته ، بحيث يعبر كل منهما عن رؤية، فعالم الواقع يصور لنا كوهين اليهودي الأمريكي ـ الألماني الأصل ـ الذي جاء إلى فلسطين بعد أن تبرع بمليون دولار، ثم سحب كل أمواله إلى فلسطين لخدمة الصهيونية، ثم يكشف لنا في عدة مشاهد عما تمور به نفوس اليهود من حقد على العرب والمسلمين، فنرى ما وصل إليه كوهين ـ الذي جاء من أمريكا يحمل وجه الحضارة القبيح ـ حين يتلذذ برؤية الأجساد المشوهة بالنابالم، وبرؤية الإنسان العربي الفلسطيني وهو يتعذب على أرضه. ثم يستبطن لنا باكثير ـ في مشهد رائع ـ أعماق هذا الصهيوني الأمريكي الذي يدفن في أعماقه الخسة والجشع والخيانة، والتحلل الخلقي والتعصب، فما أن يصل إلى القدس حتى يعمل على الكشف عما في نفسه، وينزع عن وجهه قناع الحضارة والإخاء الإنساني، ليحل محله الوجه الصهيوني القبيح، فيبدأ بتوظيف كاهن يهودي ليعيد زوجته المسيحية إلى اليهودية، وفي نفس الوقت يبدأ كوهين بمراودة خطيبة الكاهن الشابة، ولما كان الكاهن شاباً أيضاً، فكان للزوجة أن تتساق خلفه، ثم نشاهد هذا يتم صراحة، في مشهد تبادل الزوجتين بين كوهين والكاهن!

روزفلت

أما المشاهد الخيالية فإن «باكثير» يعبر فيها عن رؤيته الإنسانية، من خلال الجمع بين شخصيات تاريخية لها صلة بالحركة الصهيونية، فنرى ريتشارد قلب الأسد، الزعيم الصليبي الذي حاربه صلاح الدين الأيوبي يرفض الوجود الصهيوني في الأراضي المقدسة. ويتحالف مع صلاح الدين في استنكار سكوت العرب والمسلمين على ما تفعله الصهيونية في فلسطين، ثم نرى مشهداً يعذب فيه «هتلر» و «هرتزل» زعيما الحركة العنصرية في العالم حين ميز الأول «الجنس الجرماني» عن بقية الجنس البشري، وحين تزعم الثاني «فكرة الصهيونية العنصرية تحت ما يسمى بشعب الله المختار».

المسرحيات السياسية القصيرة:

كانت سنة ١٩٤٥م السنة التي انتهت فيها الحرب العالمية الثانية مزدحمة بالأحداث على الساحة الدولية وكان معظمها إن لم يكن كلها لخدمة التعجيل بقيام دولة إسرائيل: في أبريل مات الرئيس الأمريكي المعتدل فرانكلين روزفلت (١٨٨٤-١٩٧٢م) بعد أن أبدى قناعة بالحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وحل محله هاري ترومان (١٨٨٤-١٩٧٢م) الذي كان من أكثر المؤيدين للصهيونية، وكان له أكبر الأثر في تهيئة المسرح الدولي لقيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وهو الذي طالب الحكومة البريطانية أثناء انتدابها بالسماح لمئة ألف يهودي مهاجر بدخول فلسطين وضغط على الأمم المتحدة لإصدار قرار التقسيم لصالح إسرائيل، وهو الذي اعترف بإسرائيل فور إعلانها، وكان متعصبا لليهود في كل ما يخص صراعهم مع العرب، الأمر الذي جعل باكثير يسخر منه ويكشفه في عدد من مسرحياته السياسية القصيرة.

صور باكثير هذه الأحداث جميعا بنتائجها وانعكاساتها على قضية فلسطين في سلسلة مسرحيات قصيرة بدأ في كتابتها سنة ١٩٤٦م واستمر ينشر كل أسبوع مسرحية ساخرة إلى سنة ١٩٥٤م. وتفضي هذه المسرحيات عن اهتمام واع عميق بقضية فلسطين، وفهم دقيق لها، ومتابعة بمجلة أسبوعية لمستجدات أحداثها.

يصف لنا باكثير كيف دلف إلى ميدان كتابة المسرحية السياسية الساخرة بعد ما كان يظن أنه أبعد ما يكون عن كتابة الملهاة يقول:

(وقد يبدو غريباً أن الفكاهة والسخرية تنبعان أول ما تنبعان من السخط والحقد، ولكن تجربتي الشخصية على الأقل قد أثبت لي هذه الحقيقة، فقد ظللت برهة بعد أن زاولت الكتابة المسرحية، أعتقد أنني من أبعد الناس عن الفكاهة، وأقلهم قدرة على الإضحاك والتنكيت، إلى أن اشتعل السخط في نفسي على القوى الاستعمارية، فإذا الفكاهة والسخرية طوع بناني. وكانت مسرحية (**سأبقى في البيت الأبيض**) وهي ذات فصل واحد، أول مسرحية هزلية يكتبها «باكثير» وموضوعها السخرية من الرئيس الأمريكي (ترومان) الذي تمت على يده مأساة فلسطين، ثم كان نجاح هذه المسرحية دافعه إلى مواصلة الكتابة في هذا الاتجاه، فكانت العشرات من المسرحيات القصيرة - وقد سبق ذكر بعضها - إضافة إلى مسرحياته الطويلة. ويروي «باكثير» تجربته الشخصية مع كتابة ملاهيه السياسية فيتحدث عن الظروف الذاتية والخارجية التي أحاطت به فيقول: «كانت المشكلة الفلسطينية على أشدها في الأمم المتحدة، وكان سكرتيرها العام المستر (تريجفي لي) يتحيز لليهود تحيزا صارخاً

تشرشل

يستفز الأعصاب، حتى كأنما كان مندوباً لهم في الهيئة، إذ كان صهيونياً أكثر من الصهيونيين أنفسهم، فكان قلبي يمتلئ قيحا كلما قرأت اسمه، أو رأيت صورته في الصحف. وتضاعف حقدي عليه فأخذ يؤرق منامي، ويفسد علي سكينتي، ويدفعني للانتقام منه بقلمي، إذ لا سبيل لي للانتقام منه بغيره.وقلت في نفسي: لأسخرن به سخرية تمزقه وتمرغه في التراب. ولكن كيف؟ كيف أكتب عنه؟ وماذا يكون محور التمثيلية التي سألخصها له؟ وأؤكد لكم أن التفكير لم يقف بي طويلاً، إذ ما لبثت الفكرة أن انقدحت في ذهني، وانبعثت عن صورة خيالية بالغة في السخرية.. وأسفرت هذه التجربة عن تمثيلية بعنوان: (**نقود تنتقم**)(فن المسرحية، ص٢٥).

## مسرحيات سنة ١٩٤٦م:

وبتصنيف ما عثرت عليه من مسرحيات باكثير، وجدت له ثلاث مسرحيات تنتمي لسنة ١٩٤٦م وهي (**سأبقى في البيت الأبيض**) نشرت في ١٩٤٦/١٠/٢٦م، يسخر فيها من الرئيس الأمريكي ترومان ودعمه المطلق للصهيونية بمقابل تأييد اليهود له في الانتخابات المزمعة سنة ١٩٤٨م. ومسرحية (أضغاث أحلام) نشرت في ١٩٤٦/١١/٣٠م التي سخر فيها من رئيس الوزارة البريطاني ونستون تشرشل (١٨٧٤-١٩٦٥م) لمالأته لليهود وغرامه بهم وتمكينه لهم في فلسطين. أما مسرحية (**رسالة الرجل الأبيض**) التي نشرت في ١٩٤٦/١٢/٢٨م فهي أول مسرحية يسخر فيها من دور الأمم المتحدة ويصور الهيمنة الأمريكية عليها منذ نشأتها.

وهذه المسرحية ردة فعل لصدور قرار الأمم المتحدة الجائر بتقسيم

فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية بتاريخ ١٩٤٧/١١/٢٩م.

## مسرحيات سنة ١٩٤٧م:

ومن المسرحيات التي نشرها سنة ١٩٤٧م عثرت على ست مسرحيات فقط، وهي (**ثماني عشرة جلدة**) نشرت في ١٩٤٧/١/١١م تصور الإرهاب الذي تمارسه الجماعات اليهودية المسلحة ضد الإنجليز وخاصة جماعة الأرغون التي يقودها مناحم بيجين باختطاف الجنود والضباط الإنجليز وضربهم. ومسرحية (**مصرع مادلين هيتكليف**) نشرت في ١٩٤٧/٢/٨م تدور أحداثها في فندق الملك داود بالقدس تفضح الموقف التركي المؤيد لإسرائيل وتصور خيانة بعض الشيوخ الفلسطينيين من ضعاف النفوس أمام إغراء الجنس والمال، و(**جلسة مع الشيطان**) نشرت في ١٩٤٧/٢/٢٨م تدور أحداثها في مكتب أرنست بيفن (١٨٨١- ١٩٥١م) بلندن الذي تولى وزارة الخارجية البريطانية في عهد ونستون تشرشل من سنة ١٩٤٥م إلى وفاته، وقد أثار تأييده الصريح للصهيونية سخط العرب عليه وحملاتهم الإعلامية ضده، وكانت هذه المسرحية صورة فنية عبرت عن هذا السخط وكشفت عن اتفاق تشرشل مع ترومان على السماح بإدخال مئة ألف يهودي لفلسطين بمقابل مساعدة مالية لبريطانيا!

أما مسرحية (**إمبراطورية في المزاد**) نشرت في ١٩٤٧/٣/٢٣م (**يوم المزاد الدولي**) نشرت في ١٩٤٧/٥/٦م ففيهما يسخر باكثير من الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس.. بريطانيا العظمى، ويصور إفلاسها حيث تعرض على المزاد العلني لسداد ديونها برعاية الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية التي حلت محلها في قيادة الظلم في العالم بتبني دولة إسرائيل.

## مسرحيات سنة ١٩٤٨م:

ومن حسن الحظ أنني عثرت على معظم المسرحيات القصيرة التي كان ينشرها أسبوعياً سنة ١٩٤٨م. ولاشك في أن ما كتبه في هذه السنة الحاسمة القاصمة في تاريخ العرب والمسلمين أكثر مما نشره في السنوات السابقة. حصلت مما نشره قبل النكبة بقيام دولة إسرائيل على ثلاثة عشر عملاً تعد بحق سجلاً فنياً رائداً وفريداً للأحداث التي شهدتها الساحتان العربية والدولية قبل قيام دولة إسرائيل، وصورت التسابق المحموم الذي قادته أمريكا وبريطانيا وروسيا للتعجيل بإعلان دولة إسرائيل عبر توظيف المنظمة الدولية وأمينها العام لخدمة هذا الهدف. كما حصلت أيضاً على ثلاثة عشر عملاً آخر مما نشره بعد النكبة وقيام دولة إسرائيل، وأعتقد أن ما نشره في تلك الفترة أكثر من ذلك مما لم نحصل عليه، فقد ذكر في أحد أحاديثه الصحفية أنه كتب سبعين مسرحية سياسية قصيرة عن قضية فلسطين.

## مسرحيات سنة ١٩٤٨م قبل النكبة:

أولى مسرحيات ما قبل النكبة سنة ١٩٤٨م مسرحية (**الهدية المسمومة**) نشرت في ١٩٤٨/١/١١م عقب قرار بريطانيا الانسحاب من فلسطين، ومكانها دار المندوب السامي بمدينة القدس، حيث يقوم المندوب السامي بالدور المزدوج فيعد الدكتور حسين الخالدي مندوب الهيئة العربية العليا بأن هدف الانسحاب إتاحة الفرصة لإقامة دولة عربية، ثم يستقبل بن جوريون ويعده الوعد نفسه لأجل دولة يهودية. وفي مسرحية (**ماخور الأمم المتحدة**) نشرت في ١٩٤٨/١/١٨م يصور باكثير بسخرية مريرة مدى استغلال الدول الكبرى للمنظمة الدولية وتسخيرها لتحقيق الحلم الصهيوني. وفي مسرحية (**في سبيل راشيل**) نشرت في ١٩٤٨/١/٢٥م يسخر من التصويت على قرار التقسيم في الأمم المتحدة التي تحولت إلى ماخور صهيوني يشتري أصوات مندوبي الدول الأفريقية بممارسة الجنس مع راشيل رمز الدعارة الصهيونية في مسرح باكثير. وفي مسرحية (**راشيل والثلاثة الكبار**) نشرت في ١٩٤٨/٢/١١م يصور رمزياً

علاقة الصهيونية العالمية بالشيوعية ومدى استغلال إسرائيل للدول الثلاث الكبرى أمريكا وبريطانيا وروسيا لخدمة يوم ميلادها الموعود في فلسطين. ويستكمل باكثير الفكرة الرمزية نفسها في مسرحية (**راشيل في المخاض**) نشرت في ١٩٤٨/٤/٢م حيث يحذر من اقتراب موعد ولادة دولة إسرائيل، وتصور الداعرة اليهودية راشيل حاملاً، وأثناء المخاض في بيت لحم يداهمها المجاهد فوزي القاوقجي ورجاله فيقتلون المولود عند وضعه وهو تجسيد لأمنية كل العرب والمسلمين التي لم تتحقق.

وفي مسرحيتي (**السكرتير الأمين**) نشرت في ١٩٤٨/٣/٧م و(**نقود تنتقم**) نشرت في الأسبوع الذي يليه ١٩٤٨/٣/١٤م سخر من السياسي النرويجي تريجفي لي (١٨٩٦ ـ ١٩٦٨م) الذي انتخب أول أمين عام للأمم المتحدة، وظل فيه من ١٩٤٥م حتى ١٩٥٢م، ولعب دوراً شريراً في مناصرة قيام دولة إسرائيل، وكان صهيونيا أكثر من الصهيونيين أنفسهم، وقد أرق هذا الصهيوني باكثير وأثار غيظه بمواقفه ولا يجري ذكره على لسانه إلا ويلعنه، قال عنه في أحد أحاديثه الصحفية: «لعنة الله عليه، قبحه الله. هذا الرجل كم أثارني وكم أسهدني طوال الليالي بسبب تحمسه للصهاينة في ذلك الوقت، وكنت أصوره تصويراً كوميديا بارعاً جداً أملاه علي الغضب الشديد (من حوار معه أجراه فاروق شوشة بإذاعة البرنامج الثاني، القاهرة ١٩٦٦/١١/١٥م).

وفي مسرحية (**شهيد القسطل**) التي نشرت في ١٩٤٨/٤/٢٥م قبل قيام دولة إسرائيل بعشرين يوماً يصور باكثير استشهاد المجاهد البطل

**الشهيد عبدالقادر الحسيني**

عبدالقادر الحسيني أثناء اشتباكه مع الصهاينة في معركة فاصلة في قرية القسطل يريد بها تحقيق هدف استراتيجي يقطع الطريق على الصهاينة من الوصول إلى القرى العربية قبل يوم ١٥ مايو. أما في مسرحية (**الطابور الخامس**) التي نشرت في ١٩٤٨/٥/٩م قبل إعلان قيام دولة إسرائيل بستة أيام يصور باكثير خيانة بعض اليهود المصريين وذهابهم إلى فلسطين للاشتراك في ارتكاب الجرائم مع الصهاينة هناك، مع الاعتراف بوجود يهود مصريين يرفضون الصهيونية ويدينون بالولاء للوطنية المصرية.

## مسرحيات سنة ١٩٤٨ بعد النكبة:

وفي الفترة ما بين إعلان قيام دولة إسرائيل إلى ما قبل الهدنة وهي أقل من شهر، كتب باكثير مسرحيتين متفائلتين بانتصار الجيوش العربية والقضاء على دولة إسرائيل في المهد، الأولى بعنوان (**ليلة ١٥ مايو**) نشرت في ١٩٤٨/٥/٣٠م وهي رمزية ساخرة تدور أحداثها في تل أبيب، أبطالها ممثلو الدول الكبرى الثلاث جاؤوا يهنئون بن جوريون وراشيل مولودها اللقيط الذي حملت به سفاحاً منهم، وتنتهي بقصف الطائرات العربية لهم وتعالي صوت بن جوريون في الإذاعة يطلب النجدة لدولة إسرائيل. والمسرحية الثانية تتمة لها عنوانها (**معجزة إسرائيل**) ورغم أن موضوعها يدل على أن باكثير كتبها مباشرة بعد الأولى إلا أنها نشرت بعد الهدنة بتاريخ ١٢/ ١٩٤٨/٦م تدور أحداثها في المكان نفسه وبالشخصيات نفسها بإضافة مندوب جواتيمالا الموالي لإسرائيل وحضور مندوب بابا الفاتيكان الذي استنكر فحش راشيل وبراءة المسيح من مولودها السفاح، وتنتهي نهاية متفائلة حيث تضرب الطائرات العربية القصر ومندوب البابا يقول: «إن قنابل العرب لهي صواعق الرب».

وآخر مسرحيتين عثرت عليهما مما نشره سنة ١٩٤٨م هما (**الخطة المزدوجة**) نشرت في ١٩٤٨/٧/٤م، وتدور أحداثها في مقر الوكالة اليهودية بتل أبيب، وأبطالها مناحيم بيجين زعيم عصابة أرجون، وجاكوب زعيم عصابة شتيرن في حديث مع بن جوريون عن خطة الصهيونية المزدوجة في ضرب الأديان بعضها بعضاً، واصطناع المذاهب الهدامة مثل الشيوعية والماسونية حتى يخلو لهم وجه العالم ليحكمه صهيون. أما المسرحية الثانية فعنوانها (**ترمن وجردس**) نشرت في ١٩٤٨/٩/١٥م وكلمة ترمن مشتقة من اسم الرئيس الأمريكي ترومان وجردس مشتقة من اسم مندوب جواتيمالا (في أمريكا الجنوبية) جرانادوس، وكلاهما كان نصيراً للصهيونية بحماسة منقطعة النظير، وتدور أحداثها في عاصمة جواتيمالا بمناسبة زيارة وفد فلسطين برئاسة أكرم زعيتر الذي شرح لرئيس ولشعب جواتيمالا هناك حقيقة القضية الفلسطينية وكشف لهم عن الدور الذي لعبه مندوبهم في مناصرة الصهيونية، وقيام دولة إسرائيل مما حدا بهم إلى القبض عليه ومحاكمته، والاعتذار للشعب الفلسطيني والأمة العربية.

## المسرحيات التي كتبها بشأن فلسطين بعد سنة ١٩٥٢م

انشغل باكثير بعد قيام الثورة المصرية في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م بكتابة عدة مسرحيات تمس مستجداتها على الساحة المحلية والعربية والدولية، وتأثير ذلك على إسرائيل وتخوفها منه، وابتداءً من

أكرم زعيتر في الأمم المتحدة

سنة ١٩٥٣م عاد للكتابة عن قضية فلسطين واليهود بشكل مباشر.

وقد عثرت على ثماني مسرحيات مما نشره في (الدعوة) سنتي١٩٥٣- ١٩٥٤م يوم الثلاثاء من كل أسبوع:

مسرحية (**في سبيل إسرائيل**) نشرت في ١٩٥٣/١٠/١٩م وتدور أحداثها الساخرة في قاعة محكمة بلندن تصور موقف الحكومة البريطانية المؤيد للصهيونية من خلال قرار المحكمة بتبرئة مواطن بريطاني يهودي هتف بسقوط بريطانيا إن هي انسحبت من قناة السويس لأن في ذلك إضرارا بأمن إسرائيل، وكان ونستون تشرشل أحد الشهود له بالبراءة.

ومسرحية (**الجولة الثانية**) نشرت في ١٩٥٣/١٠/٢٦م تدور أحداثها في مكتب بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل حيث يتم الاتفاق مع عملاء الصهيونية ممثلي أمريكا وبريطانيا وروسيا على أهمية عقد اتفاق سلام مع العرب من خلال الأمم المتحدة خشية أن يشنوا حرباً على إسرائيل، فمثلما انتصرت إسرائيل في الجولة الأولى بالحرب فتنتصر بالجولة الثانية بالسلم حتى تتهيأ لحرب العرب وابتلاع فلسطين كاملة.

أما مسرحية (**الملك برنار باروخ الأول**) نشرت في ١٩٥٣/١١/٢م، وتدور أحداثها الساخرة بعد منتصف الليل في حجرة نوم الرئيس الأمريكي بالبيت الأبيض، وتصور حجم الضغط الصهيوني على الرئيس داويث أيزنهاور الذي تولى الرئاسة في تلك السنة (استمر إلى سنة ١٩٦٠م) وقراره بوقف الدعم الأمريكي لإسرائيل موقتا ترضية للعرب ولحين تتراجع إسرائيل عن قرارها بتحويل مجرى نهر الأردن، وكان

باروخ اليهودي وإلينور روزفلت قد أيقظاه عند منتصف الليل ليعدل عن قراره!

وفي مسرحية (**نصير السلام**) نشرت في ١٩٥٣/١١/٢٣م يسخر باكثير من الصهيوني المتعصب ونستون تشرشل الذي كان ينزل مع ابنته سارة في فندق ببرلين الغربية، وتصور حقده على الأمريكان الذين سيطروا على العالم، وكراهيته للألمان، وحرصه على إرضاء الصهاينة لدرجة أنه يحث ابنته أن لا تضاجع أحداً إلا إذا كان يهودياً!

وينتقل باكثير إلى الصهيوني الآخر صاحب اليد الطولى في قيام دولة إسرائيل، وأراد أن ينتقم منه ويمرغ كرامته في التراب رغم مغادرته البيت الأبيض، ويصوره في مسرحيتين متاليتين يتعرض للمحاكمة والإهانة وتثبت عليه تهمة التواطؤ لصالح دولة إسرائيل على حساب المصالح العليا للولايات المتحدة الأمريكية وذلك في مسرحيتي (**في بلاد العم سام**) نشرت في ١٩٥٣/١٢/١٤م، و(**أخيرا نطق**) نشرت في ١٢/١٨/ ١٩٥٣م، ودارت أحداثها في قاعة المحكمة العليا بواشنطن.

وفي مسرحية (**على خشبة المسرح**) نشرت في ١٩٥٤/١/٤م يواصل باكثير فضحه لعملاء الصهيونية الذين يقدمونها على مصالح أوطانهم، وبطل هذه المسرحية السياسي الإنجليزي أنورين بيفان (١٨٩٨ ـ ١٩٦٠) المختص بشؤون الشرق الأوسط الذي كان يؤدي مهمة شبيهة بمهمة الكونت برنادوت من حيث التظاهر بمجاملة العرب، ويظهر في حوار مع الصهيوني الإنجليزي إيمانويل شنويل للاتفاق معه على الدور

الملك سعود

الذي يؤديه على مسرح الشرق الأوسط.

وفي مسرحية (**الملك عبدالعزيز لم يمت**) نشرت في ١٩٥٤/٣/٢٢م ينتقل باكثير إلى مكتب وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر ودالاس (١٨٨٨ـ ١٩٥٩م) ليكشف مدى خضوع الساسة الأمريكان حتى المعتدلين منهم للمطالب الصهيونية، حيث يدور حوار ساخر بينه وبين برنار باروخ وإلينور روزفلت يطالبان فيه بالاحتجاج على تصريح الملك سعود بأن إسرائيل سرطان يجب استئصاله وإلغاء بيع صفقة الأسلحة المزمعة أو الاشتراط على السعودية عدم استخدامها ضد إسرائيل، وتنتهي المسرحية بخبر قرار الملك سعود بعدم شراء صفقة الأسلحة الأمريكية.

وبهذا نخلص إلى أن علي أحمد باكثير كان الأديب العربي الوحيد الذي حمل عبء متابعة مأساة فلسطين قبل حدوثها بسنوات، وصور أحداثها وتطوراتها من خلال كفاح فني طويل استغرق كل حياته، وقبل وفاته بخمسة أيام طلب باكثير في الخامس من نوفمبر سنة ١٩٦٩م من خيري حماد ترتيب زيارة له لمنطقة الأغوار ليعيش أياماً على خط المواجهة مع إسرائيل على نهر الأردن لأنه ينوي كتابة مسرحية عن المقاومة الفلسطينية. فقال له خيري حماد: «ومن أحق منك يا أخي بالذهاب إلى هناك؟ ولكن المنية سبقتنا، واختاره الله إلى جواره في الوقت الذي عزم فيه على المواجهة بنفسه، فليحتسبه الله عز وجل شهيدا من شهداء فلسطين، فلقد جاهد بقلمه ونفسه طوال حياته، ونسأل الله أن يجمعه بمن أراد لقياهم من الشهداء والصديقين والأبرار» ■